أحمد بهجت

سفير الله إلى أنبيائه

جبريل عليه السلام

المختار الإسلامي
للنشر والتوزيع والتصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

جبريل عليه السلام

المختار الإسلامى
أسسها حسين عاشور عام ١٩٧٢
القاهرة : ١٥ شارع شهاب - المهندسين

ص ب ١٧٠٧ - القاهرة - رمز بريدى ١٥١١ - تليفون ٢٤٩٠٤١١ - فاكس ٢٤٩٠٤١١

مقدمة

توقفت طويلا أمام شخصيته بكل ما تنطوى عليه من جمال وجلال ، وانبعثت نفسى للكتابة عنه .. و أحسب أننى ترددت طويلا قبل أن أكتب .. كيف يكتب التراب عن النور ؟ .. وكيف تعبر الأرض عن السماء ؟ .. وكيف ترسم الخطيئة صورة للنقاء المطلق ؟..

هى جرأة أعترف بذلك .. أن يكتب بشر عن الروح الأمين جبريل عليه السلام ..

حين انتهيت من كتابة «أنبياء الله» منذ ربع قرن تقريبا .. فكرت على عادة الكتّاب أن أهدى الكتاب لأحد . ولمع فى ذهنى أن أهديه لمن حمله قبل ذلك وكتبت أقول :

إهداء ... لو أنه تكرم وسمح بأن أضع خدى على التراب و أبكى حتى ينبت العشب من دموعى فسوف أهدى الكتاب إليه إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام .

إيمانا بالغيب ، وخشوعا للجلال ، واعترافا بفضله على البشر ، بوصفه رسول رب العالمين إلى الأنبياء ..

مع اعتذار عميق وخوف مشفق لجرأة الطين الخاطئ على

مجرد التوجه إليه بالحديث فضلا عن الإهداء .. توقيع
أحمد بهجت

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أفكر فيها فى سيدنا جبريل .. فى طفولتى انبهرت من مشهد جبريل وهويسد السماء والأرض حين نزل على الرسول فى غار حراء ..

كان هذا فى بداية الدعوة .. وبداية تنزيل الوحى على الرسول ..كان الشهر الذى بدأ فيه جبريل ينزل بآخر الرسالات السماوية على الرسول هو شهر رمضان ..

والحق أن شهر رمضان حين يذكر لابد أن يذكر معه حامل الرحمة إلى البشر ، هذه مناسبة إذن للكتابة عن سيدنا جبريل ..

إن المعلومات عنه قليلة .. وصورته الملائكية لم يرها أحد غير الرسول فى بداية الدعوة ، وليلة الإسراء والمعراج ورغم قلة المعلومات إلا أننا سنحاول خلال هذا الشهر الكريم أن نرسم صورة لحامل هذا الكرم إلى البشرية وهى محاولة إن لم نفلح فيها فحسبنا أننا عشنا فى رحاب الملأ الأعلى بعقولنا وقلوبنا لحظات ....

أحمد بهجت

جبريل
ونشأة الخلق

يحدثنا تفسير القرطبى عن قصة خلق آدم عليه السلام كما رويت عن ابن مسعود.. قال :

بعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ولم يكن آدم قد خلق بعد ..

قالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تقبض منى أو تنقصنى ..

فرجع جبريل ولم يأخذ منها .. وقال :

بعث الله ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل .. فبعث الله عزرائيل فعاذت منه فقال :

– وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره .. فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء .. فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، ولذلك سمى آدم باسمه هذا لأنه أخذ من أديم الأرض وصعد به ...

قال الله تعالى لعزرائيل : أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك ..

قال : رأيت أمرك أوجب من قولها ...قال الله : أنت

تصلح لقبض أرواح أبنائه ..

نتوقف سريعا أمام مستويات الملائكه قبل خلق آدم ..
إن جبريل ملك رحيم .. لقد استعاذت الأرض بالله فأعاذها .. وكذلك فعل ميكائيل .. أما عزرائيل فقد تصرف من مستوى آخر ، إن الأمر الإلهى الصادر إليه أوجب عنده من استغاثات الأرض أو استعاذتها بالله ..

الموقفان يصدران عن مستويين مختلفين وإن كان كلاهما رفيعا وقف جبريل عند مستوى البراءة والرحمة ، ووقف عزرائيل عند مستوى التنفيذ الصارم ..

كان كلاهما على حق .. ونظر كل واحد منهما الى الأمر من زاوية من زواياه ..

ومادام جبريل تغلبت عليه الرحمة فسوف يعهد إليه بأعظم الرحمات الإلهية للبشر ، وهى رحمة حمل كتب الله إلى الأنبياء والرسل ، ومادام عزرائيل يغلب عليه التنفيذ فليعهد إليه بمهمة قبض أرواح آدم وأبنائه .. وقع هذا المشهد الجليل قبل خلق آدم ..

يظهر جبريل على مسرح الأحداث فى وقت مبكر قبل

خلق آدم وربما قبل خلق السماوات والأرض ..

فى البداية قال الله تبارك وتعالى لملائكته :

(إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) .

بهذا الإعلان أخبر الحق عن انصراف مشيئته لخلق بشر من طين وحمل الإعلان أمرا إلى الملائكة المكرمين ومن دونهم من الخلق كالجن ، وكان الأمر يتضمن السجود لآدم (سجود تحية لا سجود عبادة) تكريما لروح الله التى تفضل الخالق بمنحها له ، وإكبار ا لبديع قدرة الخالق إذ صنع آدم بيديه ..

أيضا أخبر الله ملائكته الكرام بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، وحمل هذا النبأ للملائكة حيرة عميقة ..

إنهم يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، بينما المخلوقات التى تعيش على الأرض تسفك دماء بعضها بعضا وتفسد فى الأرض .. من هنا تساءل الملائكة وهم فى موقف الدهشة والبهوت (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال :

إنى أعلم ما لاتعلمون) .

لم يكن سؤال الملائكة تمردا إنما كان بحثا عن الحكمة ، ولم يكن الله غاضبا عليهم وهو يرد العلم لنفسه ..

أين كان جبريل عليه السلام من هذا كله ؟ وماذا كان موقف إبليس ؟ إن جبريل يعلم أنه خلق من نور ، ويعلم أن إبليس خلق من نار ، وهاهو الأمر يصدر إلى النور والنار معا أن يسجدا لآدم .. قال جبريل لنفسه : مادام الله تعالى هو صاحب الأمر فلا ريب أن له فى ذلك حكمة ولئن كانت الحكمة قد خفيت على فهى قائمة و موجودة ، وهكذا تلقى جبريل أمر الله بالاستسلام والرضا والامتثال والسكينة .. أما إبليس فكان فى نفسه شىء من هذا المخلوق الذى لم يظهر بعد على مسرح الأحداث .. كان إبليس يحدث نفسه كيف يسجد مخلوق نارى مثله لمخلوق صنع من تراب وماء .. إن النار خير من التراب فكيف يسجد لآدم ...

لم ينظر إبليس إلى مراد الله وتدبيره ، ونظر جبريل إلى مشيئة الله وحكمته .. كان جبريل يزداد يقينا وإيمانا

وكان إبليس يزداد قلقلا وتمردا لم يفصح عنه بعد ..

كان جبريل عليه الصلاة والسلام يقف على رأس الملائكة حين صدر إليهم الأمر الإلهى بالسجود لآدم ..

كان جبريل أول الساجدين ..

سجد الملائكة كلهم أجمعون ..

(إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) .

فوجىء جبريل عليه السلام بما حدث من إبليس .. وزادت دهشته ، لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يندهش فيها ، كانت المرة الأولى حين تحدث الله أنه سيجعل فى الأرض خليفة ، خفيت عليه حكمة الخلافة ولكنه استسلم طائعا وكتم دهشته ..

إن الأرض تموج بسفك الدماء فهل يجعل الله فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. ؟

سؤال ظل حتى الآن بلا جواب ، ولكن عدم عثور جبريل على جواب لم يهز إيمانه ولا هز ذرة فى كيانه ، لاريب أن لله حكمة عالية لا يعلمها هو ولايعلمها سواه من الملائكة أما الآن .. وبعد صدور الأمر الإلهى للملائكة بالسجود

فقد سجد الملائكة كلهم بلا استثناء ، إلا واحدا ظل واقفا دون أن يسجد ..

كان هذا المتمرد هو إبليس ..

يعلم جبريل عليه السلام أن إبليس ليس من الملائكة ، إنما هو من الجن ، ولكنه كان يقف مع الملائكة حين صدر إليهم الأمر بالسجود ، فكيف تنفذ الرتب الأعلى أمرا وتتقاعس عنه الرتب الأصغر ..

تساءل جبريل فى نفسه . أيكون إبليس قد تمرد على الله ..

احتشدت روح جبريل بغضب هائل ، واستعد للبطش بإبليس وانتظر من الله أمره فى ذلك ..

ولكن الله تعالى فاجأه بحديثه المباشر مع إبليس .

(قال : يا إبليس مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم

قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) ...

كان جبريل يتابع الحوار بين الله تعالى وإبليس ودهشته تزداد اتساعا .. قال جبريل فى نفسه :

- كان الله قادرا أن يأمرنى بضرب إبليس ضربة تمحق كيانه وتقضى على حياته وتعيده إلى العدم .. وكان الله قادرا على أن يسوى إبليس بتراب الأرض ، ولكنه استمع لأسبابه وكان حلمه عليه عظيما .. لم يكن جبريل بوصفه من الملائكة ، قادرا على فهم نوازع الشر وكيف تتراكم داخل النفس ثم تنفجر تمردا وسوء أدب مع الله ، أيضا لم يكن جبريل يدرك كيف تجرأ إبليس على عصيان الله مرتين مرة حين لم يسجد ومرة حين برر عدم سجوده بأنه خير من آدم ؟

كيف عرف إبليس أنه خير من آدم ؟

من أين جاء العلم بأن النار خير من الطين ؟ ! .

إن الله تبارك وتعالى هو خالق النور والنار والطين ، وهو خالق كل شىء ، وهو الأعلم بفضل بعض العناصر

على بعض ..

كيف جرؤ إبليس على هذا الشطط كله ..

كتم جبريل حيرته كما كتم الملائكة حيرتهم مما جرى أمامهم ومما سمعوه من حوار ...

وهدى الله جبريل والملائكة الكرام فى حيرتهم وأطلعهم على حكمة تكريمه لآدم ، وحكمة صبره على إبليس ..

قال تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) ..

(يقصد صدقهم فى استشراف الخلافة فى الأرض وتمنى إبليس لها) ..

قال جبريل وقالت الملائكة :

- سبحانك .. لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

قال الله تعالى : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ..

أدرك جبريل وأدرك الملائكة سر تشريف آدم ، إنه هو المخلوق الذى يعلم .. هو القادر على المعرفة والرمز للأشياء بأسماء ..

هذا العلم البشرى الذى شرف الله تعالى آدم به وعلمه له هو علم لا يلزم للملائكة ، لأنهم لا يعيشون فى الأرض وهذا علم يتصل بالأرض وما حولها من كواكب .. أما إبليس فقد انكشف إيمانه وظهر زيفه واستقر فى وضعه الجديد الذى اختاره صلفه ، وهو أن يصير قوة مناوئة لآدم وذريته ..

أسفر الموقف فى الملأ الأعلى بعد هذه الأحداث عن بروز رمزين جديدين ..

برز جبريل كرمز للخير المطلق والطاعة اللانهائية ، وبرز إبليس كرمز للشر المطلق والتمرد على خالقه وعداوة آدم الأبدية الممتدة ..

من هو جبريل ؟



اعتدنا فى رسم الشخصيات أن نتحدث عن طفولتها وصباها ، وتأثير الثقافة فيها والحياة الاجتماعية ، هذا منهج لا يصلح لتناول سيدنا جبريل ..

لم يكن له أب أو أم .. إنما خلقه الله تعالى على غير مثال كما خلق آدم من بعده .. وجبريل آية من آيات الله الكبرى كما سنرى فيما بعد .. وينتمى جبريل لجنس الملائكة .. والملائكة غيب ، وهم ليسوا أجسادا ظاهرة لنراها ، وإذا كان الملائكة قد غابوا عن عيون البشر ، فقد كان ذلك رحمة من الله بالبشر .

ولو أن ملكاً ظهر لواحد من البشر على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها لصعق البشر لرؤيته ، إن الجسد البشرى لايحتمل هذه الأنوار ، إلا اذا كان الله قد أعد صاحب هذا الكيان البشرى ومنحه قدرة خاصة على الاحتمال .. كما حدث بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ...

ليس الملائكة ذكورا وليسوا إناثا ، إنما هم جند من جنود الله (ومايعلم جنود ربك إلا هو) ..

ويملك جبريل قوة هائلة ، ويصعب تصورها بالعقل البشرى . وهى قوة منحها له الخالق واشتق منها أحد أسماء جبريل وهو (شديد القوى) ..

والملائكة خلق لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون وعبادة الله تعالى وتسبيحه وتمجيده وحمده وتقديسه هى مهمتهم الأولى ، أما مهمتهم الثانية فهى إنفاذ أوامره وتنفيذها .

والملائكة خلق من أكرم خلق الله وأفضله ، وهم درجات ولكل واحد منهم مهمته السامية التى يؤديها بكمال لايطاول ، وفى الملائكة من كانت مهمته حمل العرش ، وفيهم من يتحكم فى عناصر الطبيعة ، ومنهم من كانت مهمته أن يتصل بالبشر ، وأن يبلغ رسالات الله لأنبياء الله ، كما كان يحدث من جبريل عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم .. ويستطيع الملاك أن يتشكل فى صورة بشرية إذا نزل على الأرض فى مهمة ، وللملائكة أجنحة لا ندرى صورتها ولاقوتها ، وان كانت تشير إلى مراتبهم عند خالقهم سبحانه ...

اذا كنا لانستطيع استحضار ملامح جبريل بكل عظمته وأنواره فإننا على الأقل نستطيع تأمل أسمائه .. فى محاولة لرسم صورة له من خلالها ..

لم يسمه أب أو أم .. إنما سماه خالقه .. سماه الله تبارك وتعالى (الروح الأمين) قال تعالى فى سورة الشعراء (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) وسماه الله تعالى روح القدس .. قال سبحانه فى سورة النحل (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) وسماه الله تعالى رسولا كريما ، قال تعالى فى سورة التكوير (إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين) وسماه الله تعالى (الروح) .

قال تعالى فى سورة القدر (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وسماه الله تعالى (شديد القوى) قال تعالى فى سورة النجم :

(والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد

القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى) ...

هذه هى أسماء جبريل عليه السلام ..

لقد سمى روحا وأضيف إلى القدس ، والقدس صفة من صفات الله القدوس ، وقد كرم الله تعالى جبريل تكريما إلهيا حين أضاف اسمه الى صفته ، وجعل الإيمان به مسألة أساسية لانقاش فيها ولا مساومة ، وجعل حبه من صفات المؤمنين ، وجعل كراهيته سببا كافيا لخروج الإنسان من خيمة الإيمان ..

سأل اليهود النبى عليه الصلاة والسلام - من الذى يأتيك بالوحى ؟

قال : جبريل .

قالوا : هو عدونا .. لو كان الذى يأتيك بالرسالة ميكال لآمنا بك واتبعناك ..

ونزل قوله تعالى محددا بالحسم الإلهى موقف الله من أعداء ملائكته :

قال تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى

للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) ...

عاين جبريل عليه السلام أكثر من موقف فى الملأ الأعلى ..

عاين موقف (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وهو موقف حير الملائكة ولم يتبينوا حكمته فى البداية ..

وعاين موقف الصراع بين إبليس وآدم ، وهو موقف بدأ فيه إبليس بإعلان كراهيته للخليفة المختار من الله ، وكان هذا يعنى أنه اعترض على اختيار الله واصطفائه ..

وجاء موقف ثالث هو موقف أخذ العهد على أبناء آدم . وهو موقف تحدث الله تبارك وتعالى عنه فى سورة الأعراف ، وعرفه علماء المسلمين بعد ذلك باسم موقف العهد أو آيات الميثاق ..

بعد خلق آدم وقبل ان يخلق الله ذريته .. استخرج الله كل نسل آدم وحواء وهم مايزالون فى عالم الذرات ، من ظهر أبيهم آدم ثم أخذ الله عليهم العهد بتوحيده وعبادته. وفيما بعد .. حين يأذن الله بالرسالة الأخيرة ، سوف

يحمل جبريل عليه السلام آيات العهد لتصير قرآنا تضمه سورة الأعراف .

يقول الحق سبحانه :

(واذ أخــذ ربك من بنى آدم من ظهــورهم ذريتـــهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا) أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) .. شهدت جميع الخلائق البشرية بألوهية الله وربوبيته وتوحيده وكونهم عبيدا له ، شهدوا قبل أن يوجدوا على الأرض .. وقبل ان يخرجوا للحياة .. وتصور جبريل فى نفسه أن البشر سوف يحاسبون على هذا العهد ، فهذا عهد الفطرة السليمة .. ولكنه عرف ان رحمة الله تعالى سبقت عقابه يوم قال الحق :

(وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ..) وزادت دهشة جبريل من رحمة الله وحنانه على الخلق ..

مهمة للعقاب !



أمر الله تعالى جبريل أن ينزل الأرض فى مهمة للعقاب لا للرحمة ، فقد تجاوز قوم ثمود كل الحدود ..

فى البداية بعث الله نبيه صالحا عليه السلام لقومه ثمود قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ..

نفس كلمات التوحيد التى يقولها كل نبى يبعثه الله لقومه ، ماذا كان جواب قومه على دعوة الهداية ؟ ..

قالوا : (ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) ..

دعاهم إلى توحيد الله فأصروا على عبادة ماكان يعبد آباؤهم ودعاهم إلى النجاة فعجبوا مما لاعجب منه ، وأبدوا أسفهم لهذا التحول فى شخصيته ، لقد كان مرجوا فيهم قبل هذا ولكنه خيب رجاءهم بهذا الدين الجديد الذى يقصر العبادة على الله ..

مضى الصراع بين صالح وقومه .. حدثهم أنه مرسل من الله فكذبوه ، وتبعته أقلية ضئيلة ، أما الأغلبية فقد لجوا فى عتو ونفور ..كانت قوتهم تسكر رؤوسهم بالكبرياء

كانوا يتخذون من سهول الأرض قصورا وينحتون الجبال بيوتا ، وينسون أو يتناسون أن ما هم فيه من نعمة القوة هو جزء من آلاء الله عليهم ..

أخيرا طالبوه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله ..

وبعث الله إليهم بما سألوه ..

(وقد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) ..

كانت الناقة معجزة وفتنة فى نفس الوقت .. لقد سماها الله تعالى ناقة الله .. أضافها لاسمه تشريفا وتكريما ، وتوعد من يمسها بسوء ، وتحركت نوازع الشر فى نفوس المجرمين من قوم ثمود ، وحيكت مؤامرة لذبح الناقة .. ووقعت الجريمة بالفعل فوعدهم نبيهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام .. فى فجر اليوم الرابع تلقى جبريل أمرا من الله بهلاك القوم ، وهبط جبريل إلى الأرض ، ووصل لقوم ثمود ، وانشقت السماء عن صيحة جبارة واحدة . انقضت الصيحة على الجبال فهلك فيها كل شيء حى ، وارتجفت

الأرض رجفة جبارة فهلك فوقها كل كائن حى ، هى صيحة واحدة ، لم يكد أولها يبدأ وآخرها يجىء حتى كان كفار ثمود قد صعقوا صعقة واحدة (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) ..

شهد جبريل عليه السلام موقفا لآدم بعد أن سكن آدم فى الجنة . قال تعالى فى سورة البقرة :

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ..

كانت حياة آدم وحواء فى الجنة هى البراءة المطلقة ، كانا يستمعان معا لتسبيح الملائكة وموسيقى الوجود البكر قبل أن يعرف الوجود معنى الأحزان والآلام .. كان الله قد سمح لهما بكل شىء .. ماعدا شجرة واحدة حرمها عليهما ، ومن هذا التحريم نفذ إبليس بوسوسته ..

قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ..

كان الإغراء قويا ، وكانت تركيبة آدم تسوقه سوقا إلى المعرفة ، والتجربة جزء من المعرفة ....

ولقد قاوم آدم فترة ثم نسى ...

وعصى آدم ربه فغوى ....

شاهد جبريل هذه المعصية ، وكانت دهشته منها لاتوصف ، أراد أن ينبه آدم إلى أنه يوشك أن يعصى وأراد ان يمنع آدم من الأكل منها ، ولكنه لم يستقبل من الله أمرا بذلك ، ومن ثم فقد انطوى جبريل على الحزن وراقب مايجرى ...

لقد خاطب الله تعالى آدم وهو يشير إلى إبليس قائلا :

- يا آدم .. إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .. رغم ذلك ارتكب آدم معصيته ..

وصدر الأمر الإلهى بالهبوط من الجنة .. (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) .هبط آدم وحواء إلى الأرض .. كان آدم حزينا لعصيانه ، وكانت حواء تبكى لحزنه ، وعاين جبريل هذا كله ، وكان كلاهما لايدرى ماذا يفعل ، وسجد جبريل وسأل الله أن يتوب عليهما ..

وأمر الله جبريل أن ينزل إلى الأرض حاملا كلمات الله وتوبته (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .. كانت

الكلمات التى حملها جبريل عليه السلام تقول :
(ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ..

وسأل آدم جبريل : كيف أسترضى الله ..

قال جبريل : ابن لله بيتا وطف حوله كما يطوف الملائكة حول العرش .. وكانت هذه هى الكعبة .

جبريل و ابراهيم

عليهما السلام



لا يتحرك جبريل عليه السلام إلا بأمر من الله .. ولاينزل إلى الأرض إلا وهو يحمل وحى الله تعالى لأنبيائه من البشر ، أو يحمل عذاب الله لمن خرج على وحيه فى التوحيد وجاهر بالمعاصى .. وقد صدر الأمر لجبريل هذه المرة أن ينزل إلى الأرض لتثبيت فتى يقال له إبراهيم .. وقد حطم هذا الفتى أصنام قومه من قبل أن يأتيه وحى من السماء بالنبوة .. إنما حطم الأصنام بفطرته السليمة وفؤاده البصير .

هذا الفتى الذى يتعرض الآن لعقوبة الإحراق حيا ، ويقف قومه كلهم ضده هو المكتوب فى أم الكتاب كخليل للرحمن وأب للأنبياء .

نحن لا نعرف كم كان عمر إبراهيم حين حطم أوثان قومه أيضا لانعرف السن التى كلف فيها بالدعوة إلى الله .. ويبدو من استقراء النصوص القديمة أن إبراهيم كان شابا صغيرا حين قام بعمله الشجاع ، بدليل قول قومه عنه :
(سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) .. والفتى تطلق

على العمر الذى يسبق العشرين .. ويحدثنا القديس برنابا فى إنجيله أن إبراهيم حطم الأصنام قبل أن يكلفه الله تعالى بالدعوة ..

يصف لنا القديس برنابا لقاء جبريل بإبراهيم عليهما السلام ..

يقول برنابا فى الفصل التاسع والعشرين (إن إبراهيم سمع صوتا يناديه .. تلفت حوله فلم يجد أحدا فسأل .. من ينادينى ؟ .

حينئذ سمع صوتا يقول : أنا ملاك الله جبريل ..

ارتاع إبراهيم ولكن الملاك هدأ من روعه قائلاً :

– لاتخف يا إبراهيم لأنك خليل الله ، إنك لما حطمت آلهة الناس تحطيما اصطفاك إله الملائكة والأنبياء حتى أنك كتبت فى سفر الحياة ..

وتمضى كلمات برنابا فيقول : (إن إبراهيم تساءل ماذا يفعل ليعبد الله ، وأجابه جبريل أن يذهب لهذا الينبوع ويغتسل ويصعد الجبل ليكلمه الله تعالى .. وارتقى إبراهيم الجبل وجثا على ركبتيه وناداه الله تعالى.

- أنا إلهك يا إبراهيم ..

وخر إبراهيم ساجدا على الأرض معفرا وجهه وهو يقول : كيف يصغى عبدك إليك يارب وهو تراب ورماد ؟

هنالك يأمره الله تعالى أن ينهض لأنه اصطفاه عبدا له وباركه هو ومن يتبعه ...

تأمل قوله تعالى فى القرآن الكريم : (إذ قال له ربه أسلم : قال أسلمت لرب العالمين) ..

راقب جبريل عليه السلام ثورة المجتمع الكافر وهو يلتف حول إبراهيم خليل الله تعالى ويحاكمه على تحطيمه للأصنام .. كانت محاكمة علنية وعامة .. فى البداية سألوا إبراهيم أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ .

رد إبراهيم ساخرا وهو يشير لكبير الآلهة الذى علق الفأس فى رقبته :

(بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) .

قال كبير القضاة الذى يحاكمه :

(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) .

قال إبراهيم : (أفتعبدون من دون الله ما لاينفعكم

شيئا ولا يضركم .. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) ...

أعجب جبريل بمنطق إبراهيم وسخريته من الكافرين .. واستاء من منطق المحكمة الظالمة التى تحاكم رجلا جاء يحدث الناس عن الحقيقة ، ويلفت انتباههم إلى أن آلهتهم لاتستطيع أن ترد عن نفسها التحطيم فكيف تحمل إليهم النفع أو الضرر ؟ ! ..

ورغم أن إبراهيم أقام على قومه الحجة ، وناقشهم بمنطق الفكر ، وأسكتهم بنصاعة البرهان .. رغم هذا كله صدر عليه الحكم بالإعدام حرقا ..

(قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) ..

لم تعد القضية مسألة صراع بين أفكار أو مبادىء أو قيم . وإنما صارت محاولة مضحكة مبكية لنصرة آلهة ثبت أنها لاتنطق ولا ترد عن نفسها الأذى . حين تهاوت الحجة نهض الكبرياء ، وحين سقط دليلهم متهافتا خرج العناد سافر الوجه وتقرر إعدام إبراهيم بالحرق وهو حى ..

ألقى القبض عليه .. واقتاده الجند إلى المحرقة ..

قال جبريل لإبراهيم والجنود يقتادونه :

يا إبراهيم .. لاتخف ..إنك أنت الأعلى .. إن الله تبارك وتعالى يحرسك فلا تبتئس ..

قال إبراهيم : كنت أتمنى لهم أن يؤمنوا .. إن قلبى ينوء بالأحزان من أجلهم لا من أجلى ..

قال جبريل : لقد اختاروا مصيرهم بإرادتهم فلا تحزن عليهم ..

وجاءت اللحظات الحاسمة ...

تم إشعال النار وتصاعد لهيبها عاليا ، ولم يكن هناك من يجرؤ على الاقتراب منها فوضعوا إبراهيم فى المنجنيق تمهيدا لقذفه فى النار .. ووقف جبريل عند رأسه ...

وقف جبريل عند رأس إبراهيم وهم يتهيأون لإلقائه فى النار .

كواحد من الملائكة الكبار كان جبريل يقرأ أفكار إبراهيم ويرى ما يعتمل فى نفسه ..

ورأى جبريل أن الموقف الذى يواجه إبراهيم هو فى نهاية الأمر موقف بالغ الصعوبة والحرج .. وانتظر جبريل أن

يقرأ ولو سطرا واحدا من الخوف فى نفس إبراهيم ، ولكنه لم يجد .. انتظر أن يشهد ولو لمحة من القلق أو الجزع أو الرهبة فى قلبه فلم يجد ..

كـان إبراهيم راضـيـا كل الرضـا ، مـسـتـسـلمـا كل الاستسلام لقضاء الله وقدره وعرف جبريل يومئذ بما استحق إبراهيم أن يكون خليلا للرحمن .

ودعا جبريل ربه : هل أطفىء النار يارب ؟؟ هل أخسف الارض بقومه فلا يعود لهم ذكر .. ؟

ولكن الله تعالى أمره بأن يترك كل شىء على حاله ..

وصدر الأمر بإلقاء إبراهيم فى النار .. سأله جبريل ..

ياإبراهيم .. إن الله بعثنى لعونك فقل لى ماحاجتك ..

قال إبراهيم حاجتى إلى الله وحده .. وانطلق المنجنيق فتلقى جبريل إبراهيم وسط النار ، وأصدر الله جل جلاله أمرا إلى النار ..

(قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) وأطاعت النار فكانت بردا وسلاما على إبراهيم .. فـقـدت النار خاصيتها فى الإحراق والحرارة وتحولت - بمشيئة الله -

إلى حديقة يجلس فيها إبراهيم ، حين مات خوفه من النار حين ضاعت رهبته منها ، حين لم يعد فى قلبه مكان للسوى أو الاغيار ..

حين خلص قلبه لله وحده ، صارت النار خادما من خدمه وصار نور جبريل رفيقا يؤنس وحدته ..

وجلس قوم إبراهيم يرقبون النار من بعد ، كانت حرارتها وشظاياها تدفع فى وجوههم صهدا خانقا يكاد يزهق أنفسهم ، فلما انطفأت النار فوجئوا بإبراهيم يخرج منها سليما كما دخل ، كانت وجوههم مسودة من دخان الحريق بينما كان وجهه يتلألأ بالنور والجلال ، وكانت ثيابهم محترقة من شرر النار وكانت ثيابه سليمة كما هى ، وسجل الله هذه المعجزة الكبرى بقوله سبحانه :

(وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) ..

صدر الأمر الإلهى إلى جبريل عليه السلام أن ينزل مع ميكائيل وإسرافيل إلى الأرض فى مهمة مزدوجة .. هى حمل البشرى لإبراهيم وزوجته سارة ، ثم عقاب قوم لوط ووضع حد لجرائمهم ..

كان إبراهيم يجلس أمام بيته فى الحديقة الصغيرة الملحقةبالبيت فوجىء بثلاثة رجال يقفون أمام البيت .. لم يسمع صوت أقدامهم وهم يسيرون .. نهض يرحب بهم وهو يقدر فى نفسه أنهم غرباء ومسافرون ، وإن كانت ثيابهم ناصعة ولايبدو عليها أثر السفر .. قالوا سلاما .. قال سلام ..

أفسح إبراهيم لهم الطريق ليدخلوا بيته ، أجلسهم فى غرفة الضيوف وراغ إلى أهله .. نهضت زوجته سارة حين دخل عليها .. كانت عجوزا قد طعنت فى السن وابيض شعرها ووهن عظمها .. نهضت الزوجة بتثاقل ، سألها إبراهيم :

ماذا لدينا من الطعام ؟ قالت : لدينا جزء من شاه ، قال اذبحوا لضيوفنا عجلا سمينا فلا ريب أنهم قادمون من سفر بعيد ، وأغلب الظن أنهم جوعى ، كان إبراهيم أجود من الريح المرسلة فى الكرم ..

أعدت المائدة وجلس إبراهيم مع ضيوفه ووضع أمامهم الطعام ودعاهم إلى أن يتفضلوا باسم الله .. وبدأ هو

يأكل ليشجعهم على الأكل .. استرق النظر إلى ضيوفه ليطمئن أنهم يأكلون فلاحظ أن أحدا لايمد يده إلى الطعام .. قال - ألا تأكلون .. ثم قرب إليهم الطعام .. ولكن أحدا فيهم لم يأكل .. هنالك أوجس إبراهيم فى نفسه وخاف ، ففى تقاليد البادية التى عاش فيها إبراهيم ، كان معنى امتناع الضيوف عن الأكل أنهم يقصدون شرا بصاحب البيت ..

ازداد خوف إبراهيم ، وقرأ الملائكة مايدور فى نفسه من خواطر ..

قال جبريل : لاتخف ياإبراهيم .. نحن ملائكة الله تعالى ، أنا جبريل وهذا إسرافيل وهذا ميكائيل .. استدع زوجتك ..

انزاح عن صدر إبراهيم ثقل الخوف والقلق واستدعى زوجته ، لم يعد يعرف كيف يرحب بهم فى بيته المتواضع.جاءت زوجته ووقفت فى نهاية الغرفة وضحكت ترحب بالضيوف .. قال لها جبريل .. إن الله يبشرك بإسحق صكت المرأة وجهها تعجبا وقالت : ياويلتى أألد

وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا .. قال لها ميكائيل : ومن وراء إسحق يعقوب ..

جاشت مشاعر الفرح بقلب إبراهيم وزوجته بعد أن بشرهما جبريل وميكائيل بالذرية .. وشف جو المكان وتلاشت مخاوف إبراهيم واحتل قلبه لون من ألوان الفرح القلق ..

كانت سارة عاقرا منذ زمن بعيد ، وكانت بشارة الملائكة تهز روحها وترجف جسدها .. إنها زوج عقيم ، وزوجها شيخ كبير ، كيف يمكن أن تلد .. وكيف يمكن أن تشهد بعد إسحق يعقوب ..

كيف ؟ .

ووسط هذا الجو الندى المختلط بمشاعر الفرح والدهشة ، تساءل ابراهيم .

- (أبشرتمونى على ان مسنى الكبر ، فبم تبشرون) .

قال الملائكة (بشرناك بالحق فلاتكن من القانطين) .

قال إبراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .

غاب عن الملائكة الكرام إحساسه البشرى ، فظنوا أنه

من القانطين ، بينما كانت الحقيقة أنه يحس بفرح عارم ويريد أن يسمع البشارة مرة أخرى ، كان وقع البشارة على سارة أقوى من وقعها على إبراهيم ، لقد ضحكت فى البداية وهى الآن تبكى من الفرح ..

تنازعتها مشاعر الدهشة والعجب . كيف تلد وهى عجوز وزوجها شيخ كبير إن هذا لشىء عجيب ..

كان رد الملائكة عليها (أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) ..

لم تكن سارة قد أنجبت من إبراهيم خلال عشرتها الطويلة ، وهى التى زوجته من جاريتها هاجر ، وأنجبت له هاجر إسماعيل ، أما سارة فكان حنينها للولد عظيما ، ولم ينجح مرور الأيام أن يطفىء حنينها للأمومة حتى دخلت شيخوختها فاحتضر حلمها ومات ..

قالت لنفسها : هذه مشيئة الله .. واستسلمت للموقف واذا بها فى مغيب عمرها تتلقى البشارة ..

لقد صبرت طويلا ثم أدركت أن اليأس إحدى الراحتين ، وهاهو الحنان الإلهى يمسح كل معاناتها فى لحظة ..

جبريل وقوم لوط

التفت إبراهيم إلى جبريل وقال له ولمن معه من الملائكة
- أيها الملائكة الكرام .. بعد هذه البشارة لماذا أرسلتم
إلى الأرض ؟ .

قال جبريل : أرسلنا إلى قوم لوط ..

حين ذهب عن إبراهيم الخوف ، وغادره الروع ، وملأت بشرى الملائكة قلبه بالفرح .. بدأ يفكر فى معنى إرسال الملائكة إلى قوم لوط .. إن هذا يعنى وقوع عذاب رهيب بقوم لوط ، ولوط نبى كريم صحيح أن قومه مجرمون لكن من يدرى ، ربما يقلع القوم عن جرائمهم ويهتدو .

كانت طبيعة إبراهيم الرحيمة الودود تجعله لايطيق هلاك قوم دون أن يتدخل للدفاع عنهم فربما صلح حالهم .

ويدأ إبراهيم يجادل الملائكة فى قوم لوط ..

قص علينا الحق هذا المشهد فى كتابه العزيز .. قال سبحانه (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن ابراهيم لحليم أواه منيب) .

فى البداية سأل إبراهيم الملائكة : أتهلكون قرية فيها الف من المؤمنين ؟ ؟ .. قالوا .. لا ..

قال أتهلكون قرية فيها مائة من المؤمنين ؟

قالوا : لا ... قال فإن فيهم لوطا .

قال جبريل : نحن أعلم بمن فيها .

استمر إبراهيم فى الجدل .. وكشف الله أسباب جدله فى قوله (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) هذه هى أسباب الجدل إن قلبه رحيم وإن حلمه عظيم وإنه يحزنه أن يتعذب أحد .. وهذه كلها ليست أسبابا موضوعية للجدل .. إنما هى أسباب تنبع من شخصية إبراهيم ومن قلبه الحنون .. وتدخل جبريل وقال : (ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) ..

حسم الملائكة الجدل بعبارة جبريل ، وأفهموا إبراهيم أن هذا هو أمر الله تعالى ، وهذه مشيئته .. أن يأتيهم عذاب لايرده عنهم أحد ..

سكت إبراهيم وتوقف الجدل ، ونهض الملائكة وألقوا السلام على إبراهيم ومضوا فى طريقهم ..

بعد لحظة كانوا يدخلون أرض قوم لوط وهم يتشكلون فى ثلاث صور بشرية من الجمال الخارق ..

وصل الملائكة إلى قرى لوط ..

لديهم فكرة كاملة عن أسماء المجرمين وأسماء الصالحين ويعرفون كيف دعا لوط قومه إلى الإيمان والتقوى ، ويعرفون كيف كذبوه ..

يعرفون أن قوم لوط كانوا يكفرون بالله ، كما كانوا من الشواذ الذين التوت فطرتهم وانعكست نفسيتهم فصار الرجال عندهم أهدافا مرغوبة بدلا من النساء ، وصار الطهر والنقاء جريمة تستوجب الطرد والنفى ، ولقد حذرهم لوط من ارتكاب الفاحشة والتفاخر بها ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا :

(أخرجوا آل لوط من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون)

وصل الملائكة إلى لوط ، ظن أنهم بشر وتأمل الجمال الخارق فى ملامحهم وامتلأ قلبه بالغم ..

ماذا يحدث لو علم أحد من القرية بوجود ضيوف فيها .

قال جبريل للوط - نسألك أن تضيفنا ..

قال لوط محاولا صرفهم عن المبيت فى القرية - لا أعلم على وجه الأرض أخبث من أهل هذا البلد ..

لم يعلق الضيوف فأخذهم لوط لبيته وهو كاره ..

(ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات) .

أبلغت زوجة لوط (وكانت كافرة بالله تعالى) قومها أن هناك ضيوفا غرباء فى بيت لوط .. وجاءه قومه يهرعون إليه .. لم تكفهم سيئاتهم وجاءوا بحثا عن سيئات جديدة ، بدأ القوم يطرقون باب النبى .

طرقوه برفق فى البداية ، ثم علا صوت الطرق وتحول إلى الشدة والعنف ..

وأطل لوط على قومه وحدثهم .

قال لهم : (اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) استمع له قومه وعادوا يطرقون الباب ويصخبون ويضجون ، كان واضحا أنه ليس فيهم رجل رشيد .. لقد أعمت الخطيئة بصيرتهم فما عادوا يعبأون بشيء .. وأسقط فى يد لوط ..

كان لوط فى كرب عظيم .. إن ضيوفه الثلاثة يجلسون

فى هدوء وكأن الأمر لايعنيهم فى شىء بينما ضربات قومه على الباب توشك أن تحطم الباب وتقتلعه اقتلاعاً .

أحس لوط بضعفه وغربته وسط هؤلاء القوم الذين ابتكروا خطيئة ماسبقهم بها أحد من العالمين .

ووسط يأسه وخوفه قال لوط (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) تمنى لوط لو كان له ركن شديد يأوى إليه ويحميه ، غاب عنه فى كربته أنه يأوى إلى ركن شديد هو ركن الله القوى القاهر ...

ونهض جبريل يقول للوط (يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك)

كشف الملائكة عن حقيقتهم وأفهموا لوطا أن هؤلاء المجرمين لن يصلوا إليه ، فى نفس الوقت ، انكسر باب المنزل واندفع الإعصار الآثم المحموم داخل بيت لوط ، تحول جبريل نحو القوم ورفع يده وأشار نحوهم إشارة سريعة ، طمست الإشارة أعينهم وفقدوا أبصارهم ، وراحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون أنهم يدخلونه (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا

أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) .

التفت الملائكة للوط ونصحوه أن يخرج بأهله أثناء الليل ولا يلتفت أحد منهم خلفه ، إلا امرأته .. سأل لوط الملائكة : أينزل العذاب بهم الآن ، أنبأوه أن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ..

(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود) قال العلماء : اقتلع جبريل عليه السلام بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد رفعها جميعا إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلب المدن وهوى بها إلى الأرض ، أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم .. وانتهى قوم لوط تماما .. نكست المدن على رؤوسها وغارت فى الأرض حتى انفجر الماء من الأرض .. هلك قوم لوط ومحيت آثارهم وتحولوا إلى بحر ميت .

كم كان عدد الناجين من قوم لوط ؟ ..

يقول الحق :

(فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) نجا أبناء لوط وهلكت امرأته حين التفتت وراءها وتحولت إلى عمود من الملح وانطوت صفحة قوم لوط وأبيدوا من فوق الأرض ...



جبريل وإسماعيل

عليهما السلام

تسفر الحكمة الإلهية عن نفسها وتعلن عن رحماتها للخلق فى نهاية الأمر ، لقد ترك إبراهيم ولده إسماعيل وزوجته هاجر فى الجزيرة العربية ، وهو واد غير ذى زرع وبلا ماء ..

ثم تفجرت بئر زمزم عند أقدام الطفل الرضيع إسماعيل وكبر إسماعيل وعاش وتزوج ثم جاء إبراهيم ذات يوم ...

قال : ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

قال إسماعيل : فاصنع ماأمرك به ربك .

قال إبراهيم : وتعيننى ؟

قال : وأعينك .

قال إبراهيم " فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا

كان هذا البيت هو بيت الله الحرام ... وهو البيت الذى نصح جبريل لآدم أن يبنيه ويطوف حوله استرضاء لربه ، كما تطوف الملائكة حول العرش ..

إن صلة جبريل بالبيت الحرام لم تزل قائمة .. كان البيت نصيحة منه لآدم ، وهاهى السنوات تمر فيتحطم البيت

ويضيع أثره ، ولقد كانت مهمة إبراهيم أن يرفع القواعد من البيت ويعيد بناءه رحمة من الله بعباده .

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) ..

انتهى بناء البيت ، وأراد إبراهيم حجراً مميزاً يكون علامة خاصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة .. وأمر إبراهيم ولده إسماعيل أن يبحث عن حجر مميز .. وغاب إسماعيل وهو يبحث عن الحجر ..

وصدر الأمر الإلهى إلى جبريل أن يحمل لإبراهيم حجرا من الجنة .. ونزل جبريل إلى الأرض وأعطى الحجر لإبراهيم .

سأله إبراهيم

- من أنت .. هل أرسلك إسماعيل بهذا الحجر ؟ .

قال : أنا جبريل ياإبراهيم .. إن الله أرسلنى بعلامة يبدأ منها طواف الموحدين حول بيته العتيق ..

للبشر زمان يعيشون فيه ، وأرض يحيون عليها ، ومع تقدم الزمان يهرم البشر ويشيخون ويموتون ..

هذا قانون البشر ، أما الملائكة فإن قانونهم بالنسبة إلينا غيب غامض ..

إنهم لايعيشون داخل الزمن الذى نعيش فيه ، وإن كانوا قادرين على اختراقه والدخول فيه بإذن الله تعالى .. وبالتالى فهم لايهرمون ،ولا يشيخون ولا يتأثرون بمرور الزمن ..

من هنا عاصر جبريل عليه السلام البشرية وعايش أبناءها ابتداء من آدم وانتهاء بمحمد عليهما الصلاة والسلام ..

جبريل وموسى

عليهما السلام

وفى عصر موسى .. صدر الأمر لجبريل أن ينزل إلى الأرض لتثبيت موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يخرج بقومه من مصر هربا من فرعون وملأه . كان فرعون قد نادى فى قومه : (قال : ياقوم .. أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين) ..

إن فرعون يسخر من فقر موسى وخلو يديه من الأساور الذهبية ، وهو يطالبه بأن تنزل الملائكة معه تصديقا له إن كان صادقا ، وهاهى الملائكة تنزل .. هاهو جبريل يتلقى الأمر وينزل .. إن فرعون قد طلب العذاب لنفسه دون أن يدرى حين طلب الملائكة .. كان موسى يتهيأ لعبور البحر مع قومه ..

كان البحر أمامهم وفرعون بجيشه وراءهم ، وصرخ فيهم من يقول - سيدركنا فرعون ، ونقلت الصيحة لموسى إحساسا بالخوف ولكن جبريل طمأنه .. ثم أمر الله تعالى

موسى أن يضرب بعصاه البحر ..

كان جبريل يتقدم قوم موسى ، وانشق البحر عن طريق يابس سار فيه جبريل وهو يقود فرسه .. واندفع خلفه قوم موسى ، وأراد موسى أن يضرب البحر ليعود كما كان ، ولكن الله أمره أن يترك البحر على حاله .. ونظر فرعون فإذا أمامه طريق يابس فى البحر فاندفع بجيشه فيه ...

وصل فرعون بجيشه الى منتصف البحر .. تعدى منتصفه وكاد يصل إلى الضفة الأخرى ، وأصدر الله تعالى أمره إلى جبريل فحرك جبريل الموج فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه ..

فوجىء فرعون بأن جبالا من الموج ترتفع وتهوى فوق رأسه وجرفته المياه فإذا برأسه تحت جسده ، وإذا بقدميه تتخبطان فوق جسمه .. وبدأ فرعون يغرق ..

ورأى فرعون وهو يغرق مقعده فى النار.. أدرك وقد انكشف عنه الغطاء ودخل فى سكرات الموت أن موسى كان نبيا مرسلا من الله ، وكان صادقا وكان المفروض على فرعون أن يؤمن به ..

ووسط رعب النهاية آمن فرعون ..
(حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) ... كانت توبته غير مقبولة ولا صحيحة ،فهى توبة تجىء بعد معاينة العذاب ، وتجىء بعد الدخول فى سكرات الموت ..
قال له جبريل : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ..
يريد جبريل عليه السلام أن يقول لفرعون - لاتوبة لك ينتهى الوقت المحدد لتوبة الإنسان بدخوله فى سكرات الموت ومعاينته للعذاب ، وأنت تموت الآن فلا توبة لك ..
يعرف جبريل أن ماوقع لفرعون كان تحقيقا لسنة أزلية خلت فى عباد الله .. لا ينفع الإيمان بعد رؤية العذاب ومعاينته ..
(فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) ..هلك فرعون ولفظت المياه جثته (فاليوم ننجيك ببدنك

لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) ..

نجا موسى وقومه ، وهلك فرعون وجيشه .. وأسدل الستار على هذا الموقف بهذه المعجزة الكبرى ..

ثمة رجل فى قوم موسى كان يتابع تحركات جبريل ، ويلاحظ أنه يسير على الأرض الميتة فإذا الأرض تحيا وتخضر تحت أقدامه ...

حمل نزول جبريل فى موقف شق البحر إنقاذا لموسى وقومه ، وفيما بعد كان نزوله فتنة للسامرى ولقوم موسى فى نفس الوقت ..

والسامرى رجل من بنى إسرائيل ..

وقد اعترف فى محاكمته أمام موسى فيما بعد بكل ماحدث ..

سأله موسى : قال فما خطبك ياسامرى .

قال السامرى : (بصرت بمالم يبصروا به .. يعنى رأيت جبريل وهو يركب فرسه فلا تضع قدمها على شىء إلا دبت فيه الحياة .

(فقبضت قبضة من أثر الرسول) أخذت حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل وألقيتها على الذهب ..

« فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » أما الذهب الذى يشير إليه السامرى فكان هو الذهب الذى أخذه بنو إسرائيل من سادتهم المصريين ليتزينوا به فى عيد من أعيادهم ، ثم انطبق البحر على فرعون وجنوده ومات أصحاب الذهب .. وأدرك هارون أن هذا الذهب ليس من حقهم فأخذه منهم ودفنه فى الأرض حتى لا يفتن به الناس ، واستخرج السامرى الذهب ، ويبدو أن السامرى كان نحاتا محترفا أو صانعا سابقا فمزج التراب الذى سار عليه جبريل مع الذهب ، وصنع عجلا من الذهب يخور كما تخور العجول الحقيقية ..

بعد ذلك خرج السامرى على بنى إسرائيل بما صنعه .

سألوه : ما هذا يا سامرى ..

قال : هذا إلهكم و إله موسى ..

قالوا : ولكن موسى ذهب لميقات ربه ..

قال السامرى : لقد نسى موسى وذهب للقاء ربه هناك

بينما ربه هنا !

وعبد بنو إسرائيل هذا العجل .. استغل السامرى حبهم للذهب ، واستغل هذا الميل الوثنى داخل نفوسهم لعبادة الأصنام ، وقدم إليهم العجل فعبدوه كما كان قدماء المصريين يعبدون العجل أبيس ...

كانت فتنة أغضبت موسى وعاد يمسك بلحية هارون وبرأسه ويسأله كيف سمح لهذه الجريمة أن تقع ، ودافع هارون عن نفسه فقال : « يا ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى » وحاكم موسى السامرى وحكم عليه بالذلة والنبذ فى الحياة الدنيا ، أما العجل الذهبى المعبود فقد أحرقه موسى ونسفه فى اليم نسفا .

جبريل ومريم

صدر الأمر لجبريل هذه المرة بأن ينزل فى عصر مريم .. العذراء العابدة التى قالت لها الملائكة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك و اصطفاك على نساء العالمين » .. كانت مريم فى حديقة المسجد حين سمعت صوت أقدام تستقر على الأرض .. تلفتت حولها فوجدت رجلا يقف هناك .. كان جبريل يقف بصورته البشرية كرجل يرتدى ملابس هذا العصر .. تساءلت مريم فى نفسها عمن يكون وقرأ الغريب أفكارها فقال : السلام عليك يا مريم ..

قالت مريم قبل أن ترد عليه السلام : « إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا » كانت كلمتها تعبر عن خوف ورجاء فيمن يلقى عليها السلام .. وابتسم جبريل ابتسامة نقية ، وكشف عن حقيقته و مهمته فى عبارة واحدة «قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » أضاء المكان بضوء غريب لا يشبه ضوء الشمس ولا نور القمر ، كان هناك نور شديد الصفاء ، وراح هذا النور يتجمع حول جبريل على شكل أجنحة راحت تزيد حتى ملأت الأفق حول مريم ..و أدركت مريم أنها تقف أمام سيد الملائكة وسفير الله تعالى الروح الأمين جبريل ..

ارتعشت مريم انفعالا و تذكرت أنها عذراء ، قالت :
« أنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر و لم أك بغيا »
.. قال جبريل : « كذلك قال ربك .. هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » ..

عصفت بعقل مريم عشرات الأفكار .. أى غرابة أن تلد بغير أب ، لقد جاء آدم بغير أب أو أم ، وجاءت حواء من ذكر بغير أنثى ، وها هو الملك الكريم يحدثها أن ابنها سيجئ بغير أب ..

إن المعجزات تقع عندما يشاء رب العالمين أن تقع .. لكن ماذا يقول الناس عنها .. وكيف يستقبلونها .. وقرأ جبريل أفكارها فقال :

« إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا و الآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » .. قُضى الأمر .. إن البشرى من الله ، وليس جبريل سوى رسول مكلف بحملها وإبلاغها لمريم ...

مع عيسى
عليه السلام

حين جاء زمن عيسى عليه السلام ، نزل جبريل إلى الأرض لتأييده ، كان عيسى يريد إحياء الروح الإنسانى ، وقيادته إلى النور الخالق ، ولهذا السبب جاء عيسى مؤيدا بالروح القدس .. والروح القدس هو جبريل عليه السلام ..

ونحن لا نعرف الكيفية التى أيد الله تعالى عيسى بها هل صحبه جبريل و لازمه طوال بعثته ؟ إن جبريل عليه السلام يتنزل بالمعجزات ، أو ينزل على الكافرين بالعقوبات ، لكنه لا يمكث مع الأنبياء طيلة الوقت .. فهل لازم جبريل عيسى حتى رُفع عيسى ...

يكاد القلب يطمئن لهذا التفسير .. فقد كان فى حياة عيسى شئ ملائكى ، وكانت لديه قدرة خارقة على المعجزات ، وبلغت قدرته حد إحياء الموتى بإذن الله ، كما وصلت قدرته حد النفخ فى طين صنع كهيئة الطير ، فإذا هو يطير بإذن الله ..

لم يكن عيسى يقرب النساء أيضا ، عاش حياته حتى رفعه الله لم يمس امرأة ولم يتزوج ، وهذه صفة ملائكية أيضا .

ارتفعت طبيعة عيسى على دواعى الجسد ورغائبه

المشروعة ، وعاش حياته متبتلا كابن خالته يحيى ..

ولقد كان يحيى يعيش فى البرية ، أما عيسى فعاش فى مجتمع المدينة ، وليس لاستغنائه عن النساء كلية ، وليس لمعجزاته المبهرة المتصلة بالروح فى رأينا غير تفسير واحد .. هو تأييده بروح القدس طيلة الفترة التى استغرقتها دعوته حتى رفعه الله إليه .. وهذه نعمة لا نعرف أحداً من الأنبياء أوتيها من قبل .. قال تعالى فى سورة المائدة : (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذكففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ، وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) ...

جبريل و محمد
صلى الله عليه وسلم



تعرف السماء أقدار أهل الأرض ، أكثر مما يعرف أهل الأرض أقدار من فى السماء .. كان جبريل عليه السلام يعرف قدر هذا الطفل الذى ولد فى بادية مكة وحمل اسم محمد بن عبدالله ..

يعرف جبريل أنه سينزل عليه بوحى السماء بعد بلوغه سن الأربعين ، ويعرف أنه سينزل إليه وهو صبى صغير يلعب مع أترابه فى بادية بنى سعد وعمره يسير نحو الخامسة .

وقد قص محمد بن عبدالله على حليمة وزوجها - وكان يعيش معهما - ماحدث له .. قال : كنت ألاحظ الأغنام وهى ترعى ، وفوجئت بصورتين ناصعتى البياض ، ظننت أولا أنهما طائران كبيران ، ثم أدركت خطئى ، كانا شخصين لا أعرفهما يلبسان البياض ..

قال أحدهما - مشيرا إلى صاحبه - أهذا هو ؟ قال نعم .. جمدت من الفزع ، وأخذانى فأضجعانى وشقا صدرى ، والتمسا فيه شيئا وجداه وطرحاه بعيدا ، ثم التأم ماشقاه واختفيا كأنهما شبحان .

هذا الحديث الذى رواه أنس وخرجه مسلم وأحمد ، هو

المعروف بحادث شق الصدر .. وهو حادث وقع للرسول مرتين .. مرة وهو طفل فى الخامسة من عمره ، ومرة وهو شيخ قبل حدث الإسراء والمعراج ، والحدث رمزى عميق ، وقد اختلف فيه العلماء ، هناك من لجأ إلى التأويل ، وهناك من يرى أنها معنى قوله تعالى :

(ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك) وهذا رأى القرطبى فى تفسيره .

ويرى بعض علمائنا المعاصرين مثل الشيخ محمد الغزالى ، أن بشرا عظيما كمحمد لا تدعه العناية الإلهية عرضة للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من الناس ، ولئن كانت للشر موجات تملأ الأفق ، وتسرع بعض القلوب لالتقاطها فإن قلوب الأنبياء برحمة الله ورعايته . لا تستقبل هذه الموجات ولاتتأثر بها ، وبذلك يكون جهد المرسلين هو متابعة الترقى لا مقاومة التدنى .

وفى تصورى أن حادث شق الصدر الأول كان تهيئة للرسول وعونا له على تلقى الوحى ، أما حادث شق الصدر الثانى فكان إعدادا له لحدث الإسراء والمعراج .. ونفاذه من الأكوان والمجرات والعوالم إلى سدرة المنتهى ،

وهى مكان تقع عنده جنة المأوى ...

يرى أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة - رحمة الله وأرضاه - أن اتصال الملأ الأعلى بالأرض ، ونزول جبريل على قلب الرسول وقع فى النوم ثم تكرر فى اليقظة ..

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : (إن الوحى بدأ بالرؤيا الصادقة ، فكان الرسول لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ..)

هذا ماقالته عائشة ، والرؤيا قد تكون وحيا كاملا ، كما كان الشأن مع سيدنا إبراهيم ، وقد تكون مجرد إشراقات ترد على قلب المصطفى المختار ، كما كان الشأن مع الرسول ..

جاء فى سيرة ابن هشام (وجاء جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ ..

قلت ماأقرأ ، قال فغتنى به ، حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ،قلت ما أقرأ ،فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، قلت ماذا أقرأ ما أقول ذلك إلا اقتداء لى أن يعود لى بمثل ماصنع بى .. فقال :

(اقـرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسـان من علق ، اقرأ وربك الأكرام ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسـان مالم يعلم) ..

قال: فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا .. فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل ، سمعت صوتا من السماء يقول :

– يا محمد .. أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر إليه ماأتقدم وما أتاخر ، وجعلت أصرف عنه وجهى فى آفاق السماء لا أنظر فى ناحية فيها إلا رأيته كذلك ، فمازلت واقفا ماأتقدم أمامى ، وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكان ، ورجعوا إليها وأنا فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى ..

كانت هذه هى البداية ...

بدأ لقاء الرسول بالروح القدس جبريل عليه السلام فى المنام فلما اعتاد الرسول على الموقف الجديد وتهيأ له جاء

اللقاء فى اليقظة وهذا اللقاء الأخير مقام خطير .. لاتقوى عليه النفوس إلا بعد صعقها روحيا ..

وهكذا تدرج الوحى مع الرسول ، جاءه فى المنام أولا ، ثم ظهر له فى الصحو بعد أن استأنس به ، ورغم ذلك ، يمكن القول إن الوحى كان يزلزل كيان الرسول ، وكانت فيه مشقة عليه ، وهى مشقة احتملها صابرا ، وأعانه رب العالمين عليها .. كانت بداية الوحى نزول الروح الأمين جبريل على قلب الرسول فى الثلث الأخير من شهر رمضان فى ليلة من لياليه الوتر ، وهى ليلة احتفل بها الحق سبحانه وتعالى وقال فيها (إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدرك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر) ...

الروح الذى يشير إليه النص القرآنى هو روح القدس جبريل عليه السلام ..

ونلاحظ أن جبريل كان ينزل إلى الارض أحيانا وحده ، وأحيانا مع ملك أو ملكين .. ولكن هذه المرة ينزل إلى الأرض فى حفل حاشد من الملائكة .. حفل يليق بكرامة

الوحى الإلهى ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم ..

اما الرسول فقد عاد إلى خديجة رضى الله تعالى عنها يحدثها بما رأى فى نومه ، وماشاهد فى يقظته ، وقلبه يرتجف وهو يقول زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ..

فى اليوم التالى صحبته خديجة لزيارة ورقة بن نوفل ، وهو عالم بالأديان وكان من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله .. استمع ورقة بن نوفل إلى حديث الرسول وقال فى نهايته - هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .. تساءل الرسول ببراءة أو مخرجى هم ..

قال ورقة نعم ...

رغم المشقة التى أسفرت عن وجهها فى لقاء جبريل ، كان اللقاء تشريفا وتكليفا فى الوقت نفسه .

التشريف للرسول أن يخاطبه الله ويبعث إليه بجبريل والملائكة والتكليف للرسول أيضا ، وهو تكليف ثقيل سينزل به وحى على الرسول :

(إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) .

ولقد أدرك الرسول أن الأمر بالقراءة الذى كان أول مانزل من الوحى لم يكن مصادفة .

إن هذا الكتاب الجديد والأخير يعلن بداية عصر الرشد العقلى ، ويتوجه بالخطاب أول مايتوجه إلى العقل .. إن العقل هو المكلف بالقراءة والوعى .. من هنا خاطبه الوحى مباشرة ..

أدرك النبى صلى الله عليه وسلم أنه يحمل تكليفا هائلا وأمانة عظيمة ، وتفتحت رغبته فى معرفة المزيد من قول الله تعالى ..وانتظر أن ينزل عليه جبريل .

بعد أن كان يخشاه صار يتمناه ، وبعد أن كان يخاف لقاءه صار ينتظر ظهوره .. وهكذا وقع الرسول فى حب جبريل عليه السلام ، وذهب الرسول إلى الغار وانتظر أن يظهر جبريل ، لكن الروح القدس لم يظهر ، وتصاعد قلق النبى .. وشق عليه غياب الوحى وانقطاعه .. خشى أن يكون ما رآه شيئا مما يصيب الكهان ، وذلك أمر يبغضه ويستنكره ..

ومرت الأيام وتتابعت والروح القدس غائب .

وقد اختلفت الروايات فى مدة الفترة التى غاب فيها

الوحى ، ما بين رواية تذكر فترة طويلة ورواية تذكر فترة قصيرة ، وقد محص الشيخ محمد أبو زهرة هذه الروايات وانتهى إلى أن الفترة التى غاب فيها الوحى كانت خمسة أشهر وبعض أيام .

أخيرا ظهر الروح القدس .. سأله الرسول :

-ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟

نزل قوله تعالى محددا نص ماقاله جبريل : (ومانتنزل إلا بأمر ربك ، له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك ، وما كان ربك نسيا) ...حمل جبريل يوم تنزل على قلب الرسول بالوحى خير الدنيا وخير الآخرة .

إن الرسالة الجديدة دعوة للعقل الإنسانى أينما كان وحيثما كان بلا قيد على المكان أو الزمان .

هى دعوة إلى القراءة .. (اقرأ) بكل ماتحمله الدعوة إلى القراءة من ثقافة وحضارة وإبداع وعلوم .

باختصار .. كان الإسلام فى جوهره دعوة إلى العلوم والنظر فى آفاق الكون وزوايا النفس ، واكتشاف أسرار الله فى المادة .

هذا هو خير الدنيا .

أما خير الآخرة فكان هو التصور الجديد الذى حملته الرسالة عن عظمة الله ووحدانيته وجلاله .

كانت الوثنية قبل الدعوة قد أغارت على رسالات التوحيد وجعلت لله شريكا وولدا .

وجاء الإسلام يصحح حقيقة التصور الذى ينبغى أن يعرفه المؤمن عن ربه .

وبسبب هذه الصلة بين الإسلام والعلم ، رفع الله تعالى مقام العلماء فجاءوا فى الترتيب بعد الملائكة .

(شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

انتهى عهد الراحة بالنسبة للرسول ، وبدأ جهاده العظيم لتبليغ الرسالة وإنذار الناس . (ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر) .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إعلاما للرسول بأن الماضى قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه وخلوه من المسئولية ، وأنه أمام عمل جديد يستدعى اليقظة والجد ، فليحمل الشعلة المضيئة التى حملها نوح وإبراهيم وموسى وأنبياء الله من قبله .

كان جبريل عليه السلام خلال وجود النبى فى مكة ينزل عليه بآيات تدعو الناس إلى التوحيد المطلق ، وتحدث عن حرية الإنسان أمام بنى جنسه من البشر ، وهى حرية ولدت من عبودية الإنسان أمام الله . وعلى امتداد مايقرب من ربع قرن كان جبريل عليه السلام هو رسول الله من الملائكة الذى ينزل على آخر رسل الله من البشر ...

كان جبريل يأتى النبى بصور مختلفة .

كان يأتيه فى صورة مسافر يرتدى ملابس بيضاء ، وليس عليه أثر السفر ، وكان يأتيه فى صورة دحية الكلبى وهو عربى حسن الصورة جميل الطلعة ، وكان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا أشده عليه ، إن جبينه يتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرودة ، وناقته تبرك به على الأرض إن كان يركبها ثم أتاه الوحى ، ولقد جاءه جبريل مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

أحيانا كان جبريل يأتى الرسول فى صورة عربى من البادية ، فيجلس أمامه ويسأله :

- حدثنى عن الإسلام .. ويحدثه الرسول أن الإسلام بنى

على خمس شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ..

عندئذ يقول له جبريل : صدقت وأحيانا كان يسأله عن الإيمان ، فيجيب الرسول بأنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

عندئذ يقول له جبريل : صدقت .

وعجب الصحابة من هذا الذى يسأل الرسول ثم يصدقه ، وحدثوا الرسول فى ذلك فقال لهم :

- هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

كانت الصحبة قد توثقت بين جبريل عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضى القرآن ينزل على قلب الرسول يوما بعد يوم ، فيفصل فى المواقف الواقعة ويحكم فى القضايا التى تثار ويرد على تساؤلات الحائرين ، ويفند كلمات الكافرين والملحدين .. ويدعو أبناء آدم إلى مأدبة الهدى والسلامة فى الدنيا والآخرة .. ويحدث المؤمنين عن عظمة الله التى تعالت على الوصف والبيان (وماقدروا الله حق قدره

والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) ...

صدر الأمر الإلهى من رب العالمين إلى الروح القدس جبريل أن ينزل إلى الأرض يوم معركة بدر .

فى البداية ، كانت بدر تبدو معركة سهلة ، فقد ترامت الأنباء إلى المدينة المنورة ، حيث يعيش الرسول مع صحابته من الأنصار والمهاجرين ، أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة ، فيها ألف بعير يقودها أبو سفيان بن حرب مع رجال لا يزيدون على ثلاثين أو أربعين .

وانبعثت نفس الرسول للخروج وتوجيه ضربة موجعة لقريش بالاستيلاء على هذه القافلة .

وخرج مع الرسول من يحسب أنهم فى الطريق لنزهة فى البادية ، ثم اكتشف المسلمون أن القافلة قد أفلتت وخرج من مكة يومئذ رءوس الكفر دفاعا عن مصالحهم وعن النظام القائم .

وأوجس المسلمون فى أنفسهم خيفة .. لقد خرج لهم فرسان مكة وأبطالها ، وعدد المسلمين قليل ، وسلاحهم

أدنى من سلاح عدوهم ، روى أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، كان الثلاثة يتعاقبون على ركوب البعير .. واحدا بعد الآخر .

كان عدد الكافرين يزيد على الألف ، وعدد المسلمين لايزيد على ثلثمائة إلا بأفراد ، ولقد كانت الحسابات - بأى مقياس - تعطى النصر للمشركين .. وكان المسلمون يستطيعون الانسحاب ، ولكن الرسول حبب إليهم الجهاد ودعاهم لخوض هذه المعركة ..

كان واضحا أمام الرسول والمسلمين من أهل بدر أن هذه معركة فاصلة فى التاريخ ، إما أن يبقى بعدها المسلمون أو يهلكوا .

وبدأت المعركة واحتدمت .. .. ووقف النبى فى عريشه (أو غرفة القيادة) يدعو الله وهو يراقب بطولة المسلمين واستماتتهم فى القتال ، ومضى النبى يبتهل إلى الله ويقول : (اللهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصبة لاتعبد بعدها فى الأرض) ..

ونعس النبى ثوانى فى العريش ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه

يقوده على ثنايا النقع وانهزم المشركون فى بدر هزيمة مروعة ، واجتاز المسلمون أول امتحان لهم بفوز باهر ...

ما الذى فعله جبريل عليه السلام يوم نزل فى معركة بدر؟ ..

هل اشترك فى حرب الكافرين ؟ أم كان مجرد وجوده بشرى للمسلمين ؟ ..

الثابت أن الملائكة لايشتركون فى القتال الفعلى .

إن قوة أضعف الملائكة قادرة على دك الأرض ومحو العدو من فوق سطحها فى ثوان .

وبسبب قوة الملائكة لا يشتركون فى القتال ، لأن هذا القتال امتحان للمؤمنين ، ولو اشترك الملائكة فى القتال الفعلى لكان هذا انحيازا فى الامتحان ، فلا قبل لأحد بقوة الملائكة ..

إنما ينزل الملائكة للبشرى ، وينزل جبريل للبشرى وتثبيت النبى والمسلمين .. يقول الله تبارك وتعالى :

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) ..

الأوامر الأخيرة فى الآية موجهة للمسلمين ، أما الأوامر الموجهة للملائكة فوردت فى صدر الآية ، وكانت مقصورة على تثبيت المؤمنين .

فى معركة بدر ، لم يكن النبى مشفقا على هلاك المسلمين وهلاكه لأنهم سيخسرون الحياة ، إنما كان مهموما أشد الهم خائفا أشد الخوف أن تهلك جماعة المؤمنين فتتوقف عبادة الله فى الأرض ..

من هنا جاء دعاؤه : اللهم إن تهلك هذه الجماعة لا تعبد فى الأرض عند هذه الدرجة من درجات التجرد .

تنزل الملائكة يقودها جبريل عليه السلام .

يقول تعالى فى سورة الأنفال :

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم) ..

تؤكد النصوص أن دور الملائكة هو البشارة والتأييد المعنوى وملء القلوب بالطمأنينة ، ونحسب أن الله تعالى أراد أن يطلع ملائكة السماء على بطولة البشر وهم

يدافعون عن عقيدة التوحيد ، كما يباهى ملائكته بأهل الموقف فى عرفات أثناء الحج ...

صدر الوحى الإلهى إلى جبريل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض وأن يصحب الرسول فى إسرائه من مكة إلى بيت المقدس ، وأن يصحبه ويعرج به فى السماوات حتى سدرة المنتهى .

وقد وقع للرسول ليلة أسرى به حادث شق الصدر الثانى ونحسب أن هذا الحادث كان تجسيدا لعصمة الرسول وكان إعدادا لرحلة الإسراء والمعراج ، وكان إعلانا عن مقام سوف يصله هذا النبي ، وهو مقام لم يبلغه إنسان ، ولن يبلغه بعده إنسان ..

وتسطع معجزة الإسراء والمعراج فى تاريخ الأنبياء كمعجزة فريدة لا مثيل لها فى قصة نبى آخر .

لقد رأينا فى الأنبياء من يسميهم الرحمن أحباء وأخلاء مثل خليل الله إبراهيم ، ورأينا فيهم من يكلمه الله تعالى من وراء حجاب كموسى كليم الله ، ورأينا فيهم من يؤيدهم الله تعالى بالروح القدس مثل عيسى كلمة الله .. لكننا للمرة الأولى أمام نبى يدعوه الله

تبارك وتعالى ليقف فى حضرته ، ويكون رفيقه وصاحبه هو جبريل عليه السلام .

وهذه درجة من درجات التكريم التى تتوقف عندها الأقلام عجزا عن التعبير .

ولقد رأينا فى قصص الأنبياء من يسأل الله - رب أرنى كيف تحيى الموتى (مثل إبراهيم) ورأينا فى قصص الأنبياء من يطلب رفع الحجاب (مثل موسى) .. رب أرنى أنظر إليك ..

ولقد قيل لإبراهيم : أو لم تؤمن ؟ وقيل لموسى (لن ترانى) ., أما محمد بن عبدالله فلم يكن يسأل ربه معجزة أو خارقة ، ولم يكن يسأل رفع الحجاب ، ولا كان يبحث عن طمأنينة قلبه ، كان قلبه مفعما بالإيمان والرضا والطمأنينة ..

كان حبه لله قد تجاوز درجة السؤال إلى درجة الإسلام والرضا .

كان كل مايطمع فيه الرسول أن يكون الله غير غاضب عليه .

قال فى دعائه يوما : إن لم يكن بك على غضب فلا

أبالى .

هذا التواضع الإنسانى الرفيع ، هذا الخشوع الراضى بكل عذوبته وجماله ، كانا سبباً فى استدعائه إلى الحضرة الإلهية ، ووقوفه بأعظم صفاته كعبد لله أمام الحق تبارك اسمه وتعالت صفاته .

وكذلك جاءت معجزة الإسراء والمعراج ...

نظر الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد بن عبدالله ، وأوحى أمره إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام أن يصحب عبده محمدا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يصعد به فى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى .

قال تعالى فى الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) ..

وقال تعالى فى المعراج : (ولقد رآه نزلة أخرى) عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .

الآية الأخيـرة هى هدف الرحلة .. أن يرى الرسـول من آيات ربه الكبرى) .

لم تكن معجزة الإسراء والمعراج تتصل بطبيعة الدعوة ، إنما كانت تتصل بشخص الرسول وتكريمه .

اختلف العلماء هل كان الإسراء والمعراج بالروح وحده ، أم بالروح والجسد معا .. وأهل التحقيق على أنه كان بالروح والجسد ، وقد أوقع فى الخلاف اختلاف العقول والوقوع فى مصيدة (كيف) والتساؤل عن قدرة الله ، ومحاولة إخضاع هذه القدرة لأسبابنا المعتادة أو قوانيننا الحاكمة أو منطقنا البشرى .

سبحانه وتعالى عن ذلك ..

كانت الرؤية بالقلب والحواس المعروفة وغير المعروفة ، وكانت رؤية واضحة ، ليس هناك حلم ، ولا استجماع ذهنى لوحدة الوجود ، ولا فترة تألق نفسانى فذ ، ولا تخيل ولا تصور ، ولا جهد ولا قصد .. لا شىء من هذا كله .. لأن الأمر أخطر من هذا كله .

صحب جبريل النبى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم ارتفع به فى السماوات سماء بعد سماء ..

ونادى رب العالمين : ليرتفع عبدى أكثر .
وارتفع عبدالله ورسوله حتى وصل إلى سدرة المنتهى .
وصل إلى المكان المقدس الذى يسميه الله تعالى سدرة المنتهى .

وهناك شاهد النبى جنة المأوى ... وشاهد ما لا نعرف ولانفهم ولا نتصور.. إذ يغشى السدرة مايغشى) ...

شاهد الرسول فى ليلة الإسراء والمعراج أنبياء الله ، وشاهد السماوات وشاهد جبريل على صورته الملائكية التى خلقه الله عليها ، كما شاهد سدرة المنتهى وجنة المأوى ..كانت هذه هى المرة الثانية التى يرى فيها جبريل بصورته الحقيقية ..

كانت المرة الأولى فى بداية الوحى ، وكانت المرة الثانية عند سدرة المنتهى .. يقول تعالى فى سورة النجم :

(والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ماأوحى ، ماكذب الفؤاد مارأى ، أفتمارونه على مايرى)

هذه هى المرة الأولى .. ثم جاءت المرة الثانية فى قوله تعالى :

(ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى ، مازاغ البصر وماطغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .كان جبريل عليه السلام واحدا من آيات الله الكبرى .

مر الوقت ..

وانقضت ٢٣ عاما منذ أن بدأ الوحى ينزل فى مكة ، ثم عاود النزول فى المدينة .

ثم نزل الوحى يوما وهو يحمل قوله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) ..سمع أبو بكر هذه الآيات فبكى .

سئل : لماذا تبكى ؟

قال : أحسست أن الله ينعى الرسول ، فليس بعد الكمال إلا النقصان ..

بعدها بفترة انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وبكت امرأة مسلمة على خبر السماء الذى انقطع ....

رقم الإيداع ٨٨٣٨ / ٩٨
977 - 220 - 148 - 8

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١